التجديد
والأدب العربي

هملة سرت من جزيرة العرب فأنارت نجوم الشرق أدانيه وأقاصيه فعمرت الرؤوس وأنطقت الألسن تلك هي لغة العرب ، وقد عصفت في عصورها المحدثة ريح صرصر عاتية من صحاري الغرب فهبت على هذه الشعلة تريد أن تطفئها ولكنَّ الله حافظها وإن ازروى بعض من شعاعها في نفر خفت هامهم مخطوفين بالمدنيــة الغربية ، تلك الريح هي لغة الغرب وقد أحدثت أدباً ما عتم أن هجم من باب المدنية فشغل مناطق الناس في عالسهم وتواديهم وبيوتهم وصحفهم وقد ركب أصحابه من رؤوس الناس يستميلونهم الى الأخذ بعاقد هـذا الأدب السفساف والاستضاءة بلمعانه ولكنه قطع الليل المظلم . غير أن شبابنا لا يجنحون إلاّ إلى ما تستميله المدنية الغربية وما يتسهل عليهم الأخذ به وهو في الحق لا يتصعب في درسهم ولا يقتطع من زمن طرهم ولا يجحد ذلك أدباؤنا الذين تقصوا كتب الأدب قديمه وحديثه وتكشفوا أسرار علومه فغذوه بعد جهد حتى كانوا أثبت في الدار من الجدار لا يتأودون مما استنفدوا فيه أعمارهم بحثاً وتنقيباً واستنتاجاً انهج المتقدمين وإن تحقق للمحدثين الظفر والغلبة في هذه الأيام على أهل الأدب الحق القديم فكانوا أكثر عدداً وأشيع أدباً وأحظى إكباراً عند شبابنا المصري بقدر ما أوتي نصيباً من لغة الغرب وله في ذلك حسبه تعذر اذ قد ثبت في نفوس الشباب ذلك الميل الى التجديد وكلما قرب الانسان من المدنية ازداد حاجة الى التجديد وازداد ازدراءً بالقديم .

غير أن التجديد لا يتناول كل شيء فالدين مثلاً لا يقبــل تجديداً ولغة القرآن لا تقبل تجديداً لا في أسلوبها ولا في ألفاظها إلاّ ما زج فيها من ألفاظ غيرها ما ليس له مسمى فيها وتلك ضرورة ، فاللغة العربيــة لا تبقى حافظة كيانها وعظمتها إذا أقصينا لفظاً قديماً عن الاستعمال بدعوى أنه حوشي فيلمى ثم لا يكون له أثر بعد ذلك فينفرط عقد اللغة ويذهب

بها وأهاذهاب رونقها بألفاظها . ولاشك في قدم القرآن وعظمته لفظاً وأسلوباً ومعنى يتداعى إلى الانحلال أمام كل أولئك بناء الأدب الحديث . ولا ريب أن في القرآن حشاً من ألفاظ قد لا يستبينها حقير العلم باللغة من رجال الأدب الحديث فيتوهمها متنافلة متنافرة،والقرآن روح اللغة وجسمها فاذا تجسم خيال التجديد في الأذهان ولصب الاغرام به في الأدمغة نائياً جانباً عن القرآن والحديث وكلام القدامى من فصحاء العرب بدعوى تسولها نفوس طلاب التجديد انها ليست من الفصيح ما دامت مشحونة بألفاظ تنبو عن أفهام مراش الافهام فيعدونها سامحهم الله غريبة متنافلة،وما دامت سياسة التعليم في بلادنا بعيدة عن أخذ النشء بالاضطلاع والتنقيب في المعاجم وأسفار الأدب القديم ثم هم لا يأخذونهم باستظهار طائفة من مرادفاتها في كل ناحية ينحوها الكاتب فيتمكن من تجويد كتابته ودفع الوهم والنقص عن لغته،وما دامت سياسة الصحفيين والقصصيين في كتاباتهم تحدوهم أن يكونوا بناحية عن أخذ القارئين بالأساليب المرتاحة عليهم،ما دام هؤلاء وأولئك يحيدون عن أقلامهم الألفاظ السوامي عن الأفهام الغضة لعلة أنها قديمة ووعرة عليهم كان للمعلمين وللصحفيين سوء الأثر في لغة القرآن والسنة .

ومن عبث الايام أننا نرى فئة الأدب الحديث لا يأبهون لكتابة قديمة ولا لتأليف قديم في الأدب العربي وبخاصة المتبسطة في الوجوه والعلل النحوية والصرفية وهم يكرهون ذينك الفرعين للأدب في النحو والصرف إما لمجرد انصرافهم عن القديم وإما لأنهم لم يستبطنوا قواعدهما .

وقد أجمع قدامى ومحدثو رجال الأدب المحققون إلا بعض من حبس بنانه للصحافة أو كتابة القصص وجنانه للتعليم أن للأدب أصولاً من الكتب القديمة يجب أن يحذقها الأديب وأكثرهم خصص منها الكامل لمحمد بن يزيد المبرد، وأدب الكاتب لأبي محمد بن عبدالله ابن قتيبة، والبيان والتبيين لأبي عثمان عمر الجاحظ، والنوادر لأبي علي القالي البغدادي،وجعلوها أصول هذا الفن وأركانه وما سواهن تبع لها متفرع عنها وكلها مفرطة في قواعد النحو مشحونة بتصاريف الصرف مترعة بأبحاث لغوية يستدل منها في كثير من نقد آبيات لمختلف الشعراء في مختلف العصور لم يسلك فيها ناظروها مسلكاً مأمون النقد والكمال لله وحده ،

وهؤلاء يرون أن أصول مباحثهم هذه وبخاصة النحو وهو عماد سلامة الكلام وتوثيق ربطه وقوام المعاني فلا يستقيم معنى لكاتب إلاَّ بمعرفته وأن الآخذين بمقاليد الكتابة ولا أخالهم ينكرون ما يعلمون أن النحو والصرف قد ذهبت بهما أهواء مستغربيهما في دور الصحافة والتعليم وجو التأليف القصصي ببلادنا مع حقيقة ما يقف عنده النظر الصحيح بروز من حذقتهم معارفهم وتحررت أقلامهم فلهم في نفوسنا من الاعتراف بما أوتوا نصيباً موفوراً من فضل على الأدب والكاتبين وأولئكم أبعد من أن يروا ما يرى بعض الكتاب أنهما لا تستوجبهما الكتابة ولا تستدعيهما صناعة الأدب وحسب الكاتب من النحو والصرف القدر الطفيف المقرر في كتب الدراسات المدرسية على إن كثيراً من أبوابهما لا يحتاج إليه الكاتب وإنما نرى وليس ينكر أحد ما نرى أن بين الصحفيين وطلاب المدارس من يجنح في كتاباته الى سخف التركيب هروباً من تركيب يوضحه الاعراب وهم يعيلون عنه . ومما يقضي منه العجب انَّ من القوَّامين على التعاليم في مدارسنا من يرى أن هذه الكتب التي ذكرنا منها جانباً وما نهج نهجها قبور من الأوراق لا يصح أن تعد من آلات الأدب العصري ولا تقع من معارف الأدباء فيجب أن تهمل إهمالاً أو تمحق من الوجود محقاً ليكون النشء بنجوة عن اضطراب عقله لأنها تكاد تطمس منه أدباً أخذه به مطبوعه وتذهب من خصائصه متوَّماته التي ووَّضوه عليها بما يلائم عصره . وهذا قليل من كثير يلهج به مطبوعنا وصحفيونا . ولا أراني ملوماً إن قلت إن لغة العرب تذبح على هياكل العسف بمرأى ومسمع من أولئك القوَّامين عليها وهم الذين كشف الله عن بصائرهم في دركها وتكشف أسرارها ولا يؤخذ عليَّ ان قلت إنَّ العصبية لهذه اللغة إذا ضاعت في رجالها ذهب بهاؤهم وتداعت عظمتهم ولا يداخلني شك في أن أدباءنا كالعقاد والزيات والمازني والجارم وزكي مبارك ودريني خشبة وطه حسين وغير أولئك ممن برزوا في ميدانها عالة على الأمة وجناية على اللغة في بلد عربي إذ لا حاجة لأدبهم ما دامت اللغة في قبضة الموت وهم رجال لم يبلغوا ما بلغوا من سموّ المقام إلاَّ بما أوتوا نصيباً موفوراً من أسرارها وحلقوا في جوّ دقائقها من أصول وفروع ، لذلك لا يسأل في أمتنا غير أدبائنا وعلمائنا في الأمة أمام الله من لغة كتابه وأمام الأمة عن لغة قوميتها وتلقاء الضمير عما قلدتهم الأمة زعامتها ، تلك الأمانة التي يجب أن يؤدوها بالمحافظة عليها من أيدي العابثين المغرورين الذين يعملون جهدهم اليوم لاستبدال غيرها بها ، فاللغة قوام معلومات أمتهم وداعية ثقافتها وسر عظمتها ، وربما كانت أصل بقائها في هذا الوجود .

وإلى هنا أستوقف القلم .

محمد توفيق عز